(٨)

هموم فاطمة ..!

«يا أبا سفيان .. طالما كدت للإسلام وأهله فما ضرهم شيئا

أمسك عليك .. فإنا رأينا أبا بكر لها أهلا »

على بن أبى طالب

هموم فاطمة

ما كاد أبو بكر الصديق يعلم بوفاة رسول الله ـ وكان يقيم فى السنح بالقرب من المدينة ـ حتى أسرع إلى بيت رسول الله . . ودخل عليه وقبله وقال قولته الشهيرة :

ـ طبت حيا وميتا يارسول الله .

وخرج إلى مسجد الرسول ووجد الناس وبينهم عمر بن الخطاب يتوعدهم ان يتحدثوا عن وفاة الرسول ، ويقول لهم :

« إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات ، وأنه والله ما مات . ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن رسول الله فيقطعن ايدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات ».

وما كان لمثل عمر أن يقول ما قال . . إلا أن الصدمة قد هزته من الأعماق ، فلم يصدق أن الرسول الذى ملأ الدنيا بالحياة . . وملأ قلوب الناس بالإيمان قد غادرهم إلى جوار ربه . . إلى أن شاهد الصديق يعلو المنبر ويخطب الناس :

فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

اما بعد . . فمن كان يعبد محمد فإن محمدا قد مات . . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت . . وتلا قوله تعالى :

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين».

لقد أيقن الجميع أن رسول الله قد فارق الدنيا إلى جوار رب كريم رحيم . فغرقت المدينة في أحزانها . .

وتمضى عقارب الزمن متباطئة . .

جسد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام مازال فى حجرة عائشة .

وعلى بن أبى طالب وبنى هاشم يعدون العدة لجهاز رسول الله

ولكن حدث أن لعبت السياسة دورها . .

فقد تناهى إلى سمع عمر بن الخطاب أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعده يريدون أن يكون الامر لهم . .

ويسرع ابوبكر وعمر وأبو عبيده بن الجراح إلى السقيفة . . فإذا بالانصار من الخزرج والأوس يريدان ان يؤول الحكم اليهم ، وأن يخلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحجة أنهم هم الذين آزروا الاسلام ودافعوا عنه ، واستشهدوا فى سبيله . . ولولاهم لما ارتفعت راية الاسلام . . وكان على رأس الانصار سعد بن عبادة

وجاء الصديق . . ومعه عمر وابو عبيده . . وقال أبوبكر لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون الهه شتى ويزعمون أنها لهم شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى حجر منجور ثم قرأ : «ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينعفهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ وقالوا ـ مانعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ، فعظم على العرب أن يتركوا دين أبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والايمان به والمؤاساة له والصبر معه على شده وأذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم. فلم

يستوحشوا لقلة عددهم وشغف الناس لهم واجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبدالله فى الارض ، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق بهذا الامر من بعده ، ولا ينازعهم فى ذلك الا ظالم . .

وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الاسلام . رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابة . . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وانتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

واقترح الحباب بن المنذر أن يكون من قريش أمير ، ومن الانصار أمير .

فقال ابن الخطاب :

هيهات لا يجتمع إثنان فى قرن . والله لاترضى العرب أن يأمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة من ذا يقارعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل ، ومتجانف لاثم أو متورط فى هلكة .

وحدثت مشادة بين عمر والحباب بن المنذر . . وقام أبو عبيدة وخطب الناس موجها كلامه للأنصار :

يامعشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير .

فقام بشير بن سعد بن ابو النعمان بن بشير . . و خطب وقال فيما قاله :

ـ ألا أن محمدا صلى الله عليه و سلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الامر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

وطلب أبو بكر الناس أن يبايعوا عمرا أو ابو عبيدة ولكن عمر بايع الصديق ، وكذلك أبو عبيدة ، وبدأ الناس يبايعونه .

وهكذا ضاعت الفرصة على الخزرج الذين كانوا يريدون أن يتولى الامر سعد بن عبادة ، والذى رفض مبايعة الصديق . .

لقد بايعت الأوس الصديق حتى لا يزداد نفوذ الخزرج ان تولى زعيمهم سعد الخلافة . . وهكذا أخذ الناس يبايعون الصديق . . لمنزلته من رسول الله فقد أنابه عنه فى الصلاة أثناء مرضه ، وكان أول من أسلم من الرجال ، وكان ثاني اثنين اذ هما فى الغار . .

كان شيخا ورعا تقيا .

حدث هذا بينما كان على بن ابى طالب مشغولا بجهاز رسول الله .

وكان على يريد الخلافة لنفسه . . لأنه ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأقرب الناس اليه ، ولأنه زوج ابنته الزهراء

وكان بنو هاشم بالطبع يريدون أن تكون الخلافة فيهم ، فالخلافة تراث رسول الله . . وهم أولى بهذ التراث . .

بل أن كتب السيرة تقول أن العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام طلب من على بن ابى طالب أثناء مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعندما اشتد عليه المرض أن يحدث الرسول فى نصيب بنى هاشم من هذا الأمر فإن أوصى لهم بالخلافة فلن يستطيع أحدمن قريش أو غيرها أن ينازعهم فى هذا الامر . . وإذا رفض الرسول ذلك فانه يوصى بهم خيرا.

ولكن عليا رفض أن يسأل الرسول عليه الصلاة والسلام . . لأن الرسول لو لم يوصى لهم بالخلافة فلن تؤول لهم على مدى مايأتى من عصور .

كان الامام يتصور أنه لن ينازعه فى هذا الامر إنسان . . ولم يسرع إلى السقيفة لاعتقادة أن هذا الامر سيئول اليه . . وأن انشغاله بجهاز الرسول هو شاغله الشاغل .

ولكن العرب ما كانت لتوافق أن يترك الأمـر لعلى وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره . !

كما كـان أن بعض القـرشيين لا يريـدون لبنـى هاشـم أن تجتمـع فى ايديهم النبـوة والخلافة !

ولم تكن تولية ابـوبكر الخلافة (مؤامرة) قادها أبوبكر وعمـر وأبوعبيدة كما زعم بعض المستشرقين وعلى رأسهم (لامنس) .

لان أبا بكر كان أزهد الـناس فى الدنيا ، وابعدهم عن حـب السلطان والجاة والسلطان . .

وأخشى الناس لله .

ولكن الظروف هى التى جعلته يذهب للسقيفة مع عمر وأبى عبيده حتى لا تندلع الفتنه بين المسلمين وتحـدث مالا تحمد عقباه . . يحدث كل ذلك ومازال الجسد الطاهر للرسول عليه الصلاة والسلام ـ على حالة ـ لم يدفن بعد .

وليس أدلُ على ذلك من هذه الكلمة الجامعة المانعة التى قالها الصديق عقب انتخابه خليفة للمسلمين :

أيها الناس :

قد وليت عليكم ولست بخير منكم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى . الصدق أمـانه ، والكذب خيانة ، والضعيف فيـكم قوى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكـم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت اللـه ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

شاهد على بن أبـى طالب هذه المشاهد التى حدثـت عقب وفاة الرسول ، وقلبه حزين . .

كان يريد أن يكون هو خليفة رسول الله .

وكانت فاطمة أيضا ترى أنه أحق بالخلافة ولكنه كان ورعا . . محبا لدينه . . محبا للاسلام . . فلا يريد ان يشق عصا الطاعة . . ولايريد للفتنه أن تبرز فتأكل الأخضر واليابس . . وخاصة أنه رأى بذكائه الحاد أن من ينصحونه بان يكون هو خليفة المسلمين، أن هذه النصيحة ليست لله، ولكن للهوى والشيطان .

فهاهو أبو سفيان بن حرب يذهب إليه يطلب منه أن يبايعه ، وبالتالى يبايعه بنوا أميه . . وبالتالى تبايعه قريش

ولكن عليا يرى أن أبا سفيان يريد الفتنة . .

يريد أن يقف ضد أبى بكر . . وتندلع الفتنة بين من يقف بجانب الصديق، وبين من يقف مع على .

وتقول بعض الروايات التى تتحدث عن الأحداث التى توالت بعد انتقال الرسول الكريم إلى أكرم جوار . . أن أبا سفيان توجه إلى على بن أبى طالب، قبل أحداث السقيفة وقال له :

«يا أبا الحسن . . هذا محمد قد مضى إلى ربه . . وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فأبسط يدك أبايعك فإنك بها اهل» .

وقال له على :

«يا أبا حنظلة . . هذا أمر ليس يخشى مغبة الريث والتمهل» .

ويذهب أبو سفيان إلى العباس مستعينا به حتى يقنعا عليا بالأمر . . ولكن عليا يقول لعمه :

لا والله يا عم . . فإنى أحب أن أصحر بها ، وأكره أن أبايع من وراء رتاج .

وهذه الرواية تعنى أن الامام كان يريد الخلافة لنفسه ، وكان يعتقد أنه لن ينازعه فى هذا الأمر إنسان ، وأنه يكره أن يبايع فى غيبة من الناس . .

ولكن الأحداث تواكبت بسرعة . . وحدثت أحداث السقيفة . . وبايع الناس الصديق ، ويذهب اليه أبو سفيان مرة أخرى قائلا له ومحرضا : أغلبكم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش وأقلها !

أما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فصيل خيلا ورجلا ، ولأسدنها عليه من أقطارها .

وفهم الامام أن أبا سفيان يريد الفتنة ، فقد كان الصديق من الشخصية السابقة فى الاسلام ، ما يجعل الناس يقبلونه خليفه لهم .

ولم يكن أبو سفيان بتاريخه المعادى للدعوة الاسلامية ، ومواقفه وتأليبه عليها ، ما يجعله هو وبنى أميه بعيدين عن الخلافة بعد المشرقين . .

فلم يسلم أبو سفيان الا بعد فتح مكة .

وقبل ذلك كان عدوا للاسلام ودعوة الاسلام . .

وقد هالة أن يكون الصديق هو الخليفة . . وقد فطن على لكل ذلك فقال له يريد أن يخمد نار سمومه :

ـ إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة . . وأنك والله طالما بغيت للاسلام شرا . . لا حاجة لنا فى نصيحتك وتقول رواية اخرى .

«يا أبان سفيان . . طالما كدت للاسلام وأهله فما ضرهم شيئا . . أمسك عليك فإن رأينا أبا بكر لها أهلا».

ماكان للامام أن يحدث فتنه .

وماكان للامام أن يخرج عن إجماع المسلمين .

الإمام يعرف قدر الصديق وسابقته وجهاده فى الاسلام ومنزلته عند الرسول.

ولكنه مع ذلك كان يريد أن تكون الخلافة فى بنى هاشم ، و هو أحق الناس بها .

وبايع الناس لأبى بكر البيعة العامة . .

وتقول بعض الروايات أن الامام سأل عن أحداث السقيفة وعن حجة قريش .

قال له الناس : احتجت قريش بأنها شجرة الرسول.

فقال الامام : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

وتقول بعض الروايات أن السيدة فاطمة بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عاتبت الأنصار لعدم مبايعتهم على ، فكان ردهم لو أن زوجك سبق اليهم لبايعوه !

وكان رد على بى ابى طالب :

«أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم أخرج أنازع الناس سلطانه».

كانت فاطمة هى الأخرى ترى أن زوجها أحق الناس بخلافة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تبرر موقف زوجها بعدم ذهابه إلى سقيفة بنى ساعدة لانشغاله بجهاز رسول الله وايقانه بأن الأمر سيئول اليه . . وكانت تقول :

«ما صنع والله أبو الحسن الا ماكان ينبغى له . . ولقد صنعوا ماالله حسيبهم عليه ».

لم يجد الامام امام ماوصلت اليه الاحداث إلا أن يبايع أبوبكر بالخلافة .

ربما لأنه أيقين أن الشيخ الجليل بمكانته وسنه سوف يتقبله الناس .

وأن الطريق أمامه ممتد فهو مايزال فى الثلاثين من العمر .

وقيل أنه بايع الصديق بعد أيام من تولـيته الخلافة وقال البعض أنه لم يبايع الصديق إلا بعد وفاة زوجته فاطمة الزهراء .

(٩)
فاطمة الزهراء والصديق

«ياحبيبة رسول الله .

والله إن قرابة رسول الله أحب من قرابتى .. و إنك لأحب إلى من عائشة ابنتى .. لوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده .. أفتريننى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ »

أبو بكر الصديق

فاطمة والصديق

تولى ابو بكر الصديق الخلافة . . وسرعان ما واجه أمور فى غاية الخطورة والصعوبة .

فهناك من ادعى النبوة على أطراف شبة الجزيرة العربية .

وهناك من امتنع عن دفع الزكاة

وهناك جيش أعده الرسول قبل وفاته لمجابهة الروم بقيادة أسامه بن زيد فهل يرسله الصديق لوجهته ام يستعين به على مجابهة هذه الاحداث الجسام؟

هنا ظهرت قوة الإرادة الحديدية لخليفة رسول الله .

رفض الاستماع إلى الاراء التى طالبت أن يظل جيش أسامه حتى يواجه به الخارجين على الدولة . . وقد كان أحد الذين أشاروا عليه بمهادنة مانعى الزكاة عمر بن الخطاب . . و لكن الصديق يأبى الا أن يحارب فى كل الجبهات .

يحارب مدعى النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب وطليحة وسجاح وقرر أن يحارب مانعى الزكاة وأرغامهم على أدائها ولو أدى ذلك إلى إشهار السيف عليهم.

وفى نفس الوقت قرر وهو فى أشد الحاجة إلى جيش أسامه أن يذهب لمجابهة الروم فى الشام .

إرادة حديدية لهذا الشيخ الذى تجاوز الستين عاما ، حتى أنه قال لعمر بن الخطاب عندما اعترض على قراره بضرب مانعى الزكاة ماداموا يقيمون الصلاة .

«رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك . أجبار فى الجاهلية خوّارفى الإسلام ؟ إنه قد أنقطع الوحى وتم الدين . أو ينقص وأنا حى ؟».

وسرعان ما نجحت سياسة خليفة رسول الله . . و أنتصر فى كل الجبهات ، وأعاد للحكومة الإسلامية هيبتها وهيمنتها على شبه الجزيرة العربية كلها . . وأعاد للاسلام هيبته فى القلوب والعقول . . إنه لم يكتف باعادة الأمن والأمان لشبة الجزيرة . فقد قضى على المرتدين ومدعى النبوة ومانعى الزكاة، بل أن جيوشه الذى بعث بها لمجابهة الفرس والروم . . بدأت تدك حصون الاعداء . . وتتوإلى الانتصارات ويبرز اسم خالد بن الوليد كفارس وقائد لا يشق له غبار وهو يواجه جحافل الروم ، ويدوس تحت سنابك خيوله الظافرة جنود امبراطورية من اعتى الامبراطوريات التى عرفها التاريخ . . وبدأ ألق الانتصارات الحاسمة فى الشام على الروم ، وفى العراق على الفرس . . وأصبح الصديق بمبادراته ومهارته السياسية ، وعمق إيمانه شخصية فذه من أعظم الشخصيات التى عرفها التاريخ الاسلامى . .

ومع ذلك فقد كان هذا الشيخ الجليل مهموما بأمور المسلمين ومن الأمور التى تأثر بها الخلاف الذى حدث بينه وبين فاطمة بنت الرسول علية الصلاة والسلام حول (فدك) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد وهب فيأ هذه القرية لابنته وبعض فقراء المسلمين . . وطالبته فاطمة رضى الله عنها بهذا الفيء . . إلا أن الصديق رفض ذلك لأنه سمع الرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث . . ما تركناه فهو صدقة».

وقالت له فاطمة :ـ أفى كتاب الله أن ترث ابنتك ولا أرث أبى ؟

وقرأت عليه الأية الكريمة :«وورث سليمان داود».

ويقول لها أبوبكر :

ياحبيبة رسـول الله . والله ان قرابة رسول الله أحـب من قرابتى ، وإنك لأحب إلى مـن عائشة ابنتـى . . و لوددت يوم مات أبوك أنى مـت ولا أبقى بعده . . أفترينني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك و ميراثك من رسول الله ؟

وقالت له وكان معه عمر بن الخطاب :

ـ أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتعقلانه ؟

فلما أجابوا بالايجاب قالت :

«فانى أشهـد الله وملائكته أنـكما أسخطمانى ومـا أرضيتمانى ولئـن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه».

وما كان من الصديـق إلا أن امتلأت عيناه بالدموع ، واعتـراه الحزن العميق . . حتى أنه قال للناس . . وكأنه ماكان يـرغب فى هذه الخلافة التى تجر عليه سخط بنت حبيب أعظم رسل الله . . لقد قال لمن حوله :

«يبيت كل رجل منكـم معانقا خليلته ، مسرورا بأهلـه ، وتتركونى وما أنا فيه ، لا حاجة لى فى بيعتكم أقيلونى !».

إلى هذا الحد لا يريد الصديق أن تعضب منه فاطمة الزهراء . .

ويورد لنا الاستاذ عباس محمود العقاد هذه المشكلة بقوله :

وخلاصة الحديث فى أمر (فدك) أنها قرية كان الـنبى يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلـمين ، فلما قضى عليه الـسلام أرسلت فاطمة إلى أبى بـكر تسأله ميراثها فيما بقى من خمس خيبر ، فقا ل أبوبكر :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

«إننا معشر الأنبياء لا نورث» . . ما تركناه صدقه. وإنى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها .

ويقال أن الزهـراء احتجت عليـه بقوله تعالى عـن نبى من أنبيـائه (زكريا) «يرثنى ويرث آل يعقوب» .

وقوله تعالى : وورث سليمان داود

وأن أبابكر قال لها :

«يابنت رسول الله . أنت عين الحجة ومـنطق الرسالة لا يولى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولـكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هـو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركته » .

وجاء فى شرح أبى الحديد على نهج البلاغة أن أبا بكر قال :

ـ يابنت رسول الـله ـ والله ماورث أبوك دينارا ولادرهـما ، وأنه قال : إن الأنبياء لا يوروثون

فقالت : إن فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فمن يشهد بذلك ؟

فجاء على بن ابـى طالب فشهد ، و جاءت أم أيمن فشهـدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطـاب وعبدالرحمن بن عوف فـشهد أن رسول الله صلى الـله عليه وسلم كان يقسمها .

فقال أبوبـكر : صدقت يابنـت رسول الله ، وصدق علـى ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبدالرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟

قالت : أصنع بها كما كان يصنع بها أبى .

قال : فلك على الله أن اصنع كما كان يصنع فيها أبوك .

قالت : لتفعلن ؟

قال : لأفعلن

قالت : اللهم اشهد .

وكان أبوبكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك . ثم كان على كذلك .

ويقول الأستاذ العقاد :

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر :

- انطلق بنا إلى فاطمة فإنا أغضبناها فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما .

فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبوبكر فقال :

- ياحبيبة رسول الله ، و الله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى ، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترينني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

لا نورث . . ماتركنا فهو صدقة .

فقالت : أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم

فقالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول :

رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟

قالا : نعم سمعناه من رسول الله .

قالت : ـ فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطمانى وما رضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكوكما إليه

فقال أبوبكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يافاطمة ثم انسحب وبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم :

«يبيت كل رجل منكم معانقا خليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنه فيه . لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتى».

ويعلق الاستاذ العقاد على مسألة فدك بقوله :

«والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لاتنتهى إلى مقطع للقول متفق عليه ، غير أن الصدق فيه لامراء أن الزهراء أجلّ من أن تطلب ماليس لها بحق ، وأن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينه عليه، ومن أسخف ما قيل أنه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق (علىّ) من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يعيش ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينه من حكمة فى مسألة فدك . فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها .

وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وإنما هو الخرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين رضوان الله عليهم أجمعين».

* * *

إن الصديق كان عزيزا عليه أن يغضب فاطمة . فليس هناك من هو أحب

إليه من أبيها . . فهى ابنة النبى الخاتم والصديق يعلم أنها كانت قريبة إلى قلب والدها العظيم الذى يدين بدينه والذى أخرج الناس جميعا من ظلمات جاهلية بغيضة عمياء إلى رحاب النور والايمان .

الصديق يعرف كل ذلك ويحبه . . وكان منتهى أمله أن ترضى عنه فاطمة بنت أحب الناس إلى قلبه . .

إنه لم يكذب فاطمة

ولكنه كان يرى أن الانبياء لا تورث ، وأن هذا الذى تركه الرسول من أرض (فدك) سيقسم كما كان فى عهد الرسول . . فاطمة تأخذ حقها منه كما كان على عهد الرسول والفقراء يأخذون حقهم كما كان فى عهد الرسول . حتى أن الصديق حزن حزنا شديدا وهو الشيخ النحيف الضعيف لحزن فاطمة ، حتى أنه تمنى لو لم تؤول اليه أمر الخلافة .

الخلافة جاءت فى ظروف بالغة الصعوبة ، واستطاع الصديق أن يلم الشمل، ويسير مقتدياً بهدى رسول الله لم يغير ولم يبدل .

ورأى أن الرسول قد أعد جيش أسامة للانتقام لشهداء مؤته ، فتركه يذهب لتأدية هذه الرسالة ، رغم أن الظروف كانت تحتم وجود هذا الجيش فى المدينة . . حيث ارتدت القبائل عن الاسلام حتى لم يبق متمسكا به إلا مكة والمدينة والطائف . .

وقاد بنفسه جيوش المسلمين ضد من يحاولون الاغارة على مدينة رسول الله ، والقضاء على دين الله وأظهر من الشجاعة والبأس ، ما جعل القبائل ترتعد من شدة إيمانه وتصميمه على أن يعود الاسلام على قوته فى حياة خاتم النبيين .

ولكنه الان أمام موقف فاطمة كان شديد الحزن . . شديد الأسى : من يستطيع إغضاب سيدة نساء العالمين؟!

حتى أنه قال في مرض موته :

والله ما آسى إلا على ثلاث فعلتهن ليتنى تركتهن وثلاث تركتهن ليتنى كنت فعلتهن . . وثلاث ليتنى سألت رسول الله عنهن .

«ليتنى يوم سقيفة بنى ساعده كنت ضربت على يد أحد الرجلين : أبى عبيدة أو عمر . . فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير . وليتنى سألت رسول الله لمن هذا الأمر من بعده فلا ينازعه فيه أحد ».

كان أبو بكر يحب كل ما كان يحبه رسول الله . .

ويكره كل ما يكره أعظم رسل السماء كان يعرف أن النبى عليه الصلاة والسلام يحب فاطمة . . فلم يكن من المعقول أن يسليها حق هولها!

وكان يعلم أن النبى كان يحب عليا ، فلم يكن من المعقول أن يكره عليا !

وكان يعلم أن النبى يحب الحسن والحسين ، فأحب الحسن والحسين . . حتى أنه شاهد الحسن يلعب مع الأطفال فحمله على كتفه . . وأخذ يداعبه . . ويقول له ما كانت تقوله أمه الزهراء له :

- بأبى شبه النبى ليس شبيها بعلى!

فأخذ علىٌ يضحك . . وهو الذى لم تعرف الضحكة طريقها إلى فمه منذ غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم دنيانا .

ان الامام كان يعرف قدر أبى بكر ، وأبو بكر كان يعرف قدر على . . وقد أخلص على بن أبى طالب لأبى بكر بعد أن تولى الخلافة ، فلم يثر عليه ولا انتقده فى حياته ، بل أنه عندما علم أن ابنه الحسن ، وكان صغيرا دخل المسجد ، وكان الصديق يخطب الناس ، فقال للصديق وهو على المنبر ـ ليس هذا منبر أبيك . . انزل عن منبر أبى.

والتفت الصديق ، وعرف أن الصغيـر الذى يقول هذا الكلام هو الحسن بن على ، فقال له :

ابن بنت رسول الله . . صدقت والله . . ما كـان لأبى منبر وإنه لمنبر أبيك وعلم على بذلك فأرسل إلى خليفة رسول الله :

- اغفر ما كان من الغلام ، فإنه حدث ، ولم تأمره وكان رد الخليفة :

- انى أعلم . . وما اتهمت أبا الحسن .

(١٠)
قوة شخصية فاطمة

ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله من فاطمة .

وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ، ورحب بها وأجلسها فى مجلسه . وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به ، وأخذت يده فقبلتها .

عائشة رضى الله عنها

قوة شخصية فاطمة

من خلال ما روى عن فاطمة الزهراء .. عن حياتها فى كنف الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعندما تزوجت ابن عمها على بن أبى طالب ، يتضح أنها كانت رغم نحافتها .. وأنها كانت سمراء .. إلا أنها كانت بليغة ، وكانت قوية الشخصية .. يتضح ذلك من مواقفها مع الرسول الكريم عندما كانت تذهب إلى والدها فى صباها المبكر فى أول الدعوة ، فترفع ما يضعه السفهاء من المشركين على والدها العظيم من قاذورات ..

ويتضح أيضا قوة هذه الشخصية عندما رفضت أن يتزوج على بن أبى طالب غيرها .

فقد غضبت غضبا شديدا عندما علمت أنه يريد الزواج أو عرض عليه الزواج من فاطمة بنت عمرو بن هشام ابن المغيرة .. وغضب والدها لغضبها، ورفض أن يتزوج على على ابنته وخاصة ابنة عمرو بن هشام (أبو جهل) ..

رغم أن ذلك حدث عقب الفتح .. وبعد اسلام فاطمة ، وأخوها عكرمة، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام لآل المغيرة !

- إنما فاطمة منى يغضبنى ما يغضبها

وكانت الزهراء شديدة الشبه من والدها .. فى مشيتها .. فى كلامها وقد تحدثت عنها عائشة رضى الله عنها فقالت :

«ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله من فاطمة .

وكانت إذا دخلت عـليه أخذ بيدها فقبلـها ، ورحب بها وأجلسها فـى مجلسه وكان إذا دخل عليها قامت اليه ، ورحبت به وأخذت يده فقبلتها».

كـان والدهـا أحـب الـنـاس إلـى قلبهـا ، حتى أنه عنـدما انتقل إلى جوار ربـه حـزنت حزنا شـــديدا ، فلـم تعـرف للحياة معنـى ووالدهـا الـذى كـان يمـلأ الدنيـا بالحيـاة ، ويجعـل لهـا طعمـا خاصـا ، ومـذاقا خاصـا قـد انتـقل إلى جوار ربه.

فهو الحنان كله .

وهو الرحمة كلها . .

وهو النور الذى يضـىء بروعـة تعـاليم الإســلام ودروب الحيــاة . . كيف تكون الحياة بدون خاتم النبيين ؟!

صحيح أنه ذهب إلى جوار ربه الكـريم ليكون فى أعلى درجات الجنان . . ولكن الـنفس القريـبة اليه تتـوق إلى رؤاه . . ان تعالـيمه خالدة . . ورسـالته خالدة . . وقيمه وفضائله التى نادى بها وطـبقها فى حياته باقية إلى يوم الدين ولكن محمدا العظيم بتكامل شـخصيته ، وجلال وجمال روحانياته ، لابد أن يفتقــد وخاصـة من ابـنته التـى كـانت تكـن لــه كـل مشاعر الـبنوة والحب العظيم . . لقد رثـته بعد أن أخذت شيئا من تراب قبر الوالـد الحبيب ووضعته على عينها وقالت :

ماذا على من شم تربة أحمد

ألا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها

صبت على الأيام صرن لياليا

بل أنها تمنت أن كانت قد غادرت الدنيا قبل رحيل أعظم أنبياء الله . .

فقد ذهبت إلى قبره عليه الصلاة والسلام ، وهى تتذكر أيامه فى الدنيا ، والذى جاءها وهى ترسف فى ظلام الجاهلية والغباء ، وعبادة الأصنام ، وغادرها بعد أن ملأها نورا وأمنا وسلاما . .

قالت على قبره ، وقد مر على خاطرها ذكريات وأطياف أيام الرسول العظيم :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها

وغاب منذ غبت عنا الوحى والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا

لما نعيت وحالت دونك الكثب

لم تعش الزهراء بعد والدها طويلا . . كما تنبأ الرسول الكريم . عندما قال لها قبل أن يودع الدنيا .

«إنك أول أهلى لحوقابى».

فبعد ستة شهور أو أقل على حسب اختلاف الروايات ، انتقلت فاطمة رضى الله عنها إلى جوار ربها . . راضية مرضية . . عاشت حياتها على الكفاف ، وأنجبت الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . . وعندما نزلت الآية الكريمة .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الاحزاب : ٣٣).

أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى على وفاطمة وابنيهما فقال :

«هؤلاء أهل البيت».

وفى البخارى عن أبى بكر رضى الله عنه قال :

«ارقبوا محمد صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته».

لقد مـرت هذه الشهور الـقليلة بـعد رحيل خـاتم النبيين إلـى جوار ربه ، لتكون سيدة نساء أهل الجنة أول أهله لحوقا به .

ويقول الاستاذ العقاد :

وحضرهـا الموت .. وخذلتـها جوارحهـا ، وعزيمتهـا فى مواجهـة الموت حاضره لا تـخذلها ، فتولـت أمر غـسلها ، وحـملها علـى النعش بنفـسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل:

يا أمَّة ائتينى بثيابى الجدد ، فلبستها ثم قالت : قد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كتفا وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها :

- أتستطيعين أن تواريني بشيء ؟

قالت : انى رأيت الحبشـة يعملون السرير للمرأة ، ويشـدون النعش بقوائم السرير .

فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت :

«سترتمونى ستركم الله . .».

وتبسمت . . ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها.

وكانت وفاتها ، علـى القول الأشهر ليلة الثلاثاء لثـلاث خلون من رمضان سنة احدى عشر للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله.

هذا مـوجز للسـيرة العطـرة لسيدة نـساء أهل الجنـة . . سيرة بنـت خاتم النبيين . . وأعظم الهداة ، والتى قال عنه الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

وقال عنه أيضا فى سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) .

يروى عن سعيد بن جبيـر أنه لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى ٢٣) .

قالوا يا رسول الله : من هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم لقرابتك ؟

فقال : على وفاطمة وابناهما.

رحلت الزهراء إلى جوار ربها .

التحقت بالرفيق الأعلى . . بعد أن تركت ذرية يعبق من شخصياتها عبق النبوة . . ويذكر الناس دوما بجدهم العظيم وسيرته العطرة ، ومكانته التى لا تعلو عليها مكانة فى القلوب والعقول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

لقد ودعت الحياة . . ورثاها زوجها على بن أبى طالب بكلمات بليغة ، تعبر عن مشاعره تجاه الراحلة العظيمة فقال :

السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك ، السريعة اللحاق بك .

لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة . .

أما حزنى فرمد . . وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . . وستنبئك ابنتك بتضافر (أمتك) على هضمها ــ فأحفها السؤال واستخبرها الحال. هذا ولم يطل بك العهد . . ولم يخل منك الذكر.